دخول الإسلام إلى الأندلس،
وجهود المسلمين في نشر العقيدة الصحيحة

الباحث/ محمد بن أبوبكر بن حسن الصعب
باحث دكتوراه بقسم الشريعة والدراسات الإسلامية
تخصص العقيدة والدعوة
جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

مقدمة:

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمةً للعالمين، وإماماً للمتقين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين، وأزواجه أمهات المؤمنين.

أما بعد:

فإن الله تعالى قد منّ على بلاد الأندلس بأن غمرها نور الإسلام فترة طويلة من الزمن، كانت خلالها مصدر إشعاع على العالم كله، ومحط أنظار الناس، حيث بلغت حضارة المسلمين فيها مبلغاً عظيماً، لم تصل إليه أروبا من قبل، والفضل يعود إلى منة الله على عباده بدين الإسلام، الذي يحيي الله به القلوب، ويفتح به العيون، فيستنير السالك، ويهتدي الساري.

وقد دخل الإسلام إلى الأندلس في ظروف معينة، خاض فيها المؤمنون الأتقياء غمار الحروب، فكانوا بحق رجال المشهد، وأهل العزة، وذلك لحسن استقامتهم على دين الله، وعزيمتهم على نصره وفدائه بالروح والدم والمال، وسوف نستعرض في هذا البحث إن شاء الله، حالة الجزيرة الإيبيرية قبل الإسلام، وكيف أن الله منّ عليها بنعمة هذا الدين العظيم، فكانت بلاد الأندلس منطلق العلم والعلماء والأدباء والفقهاء والشعراء وغيرهم، وسيكون الحديث في النقاط التالية:

١. حالة الجزيرة الإيبيرية قبل دخول الإسلام.
٢. دخول الإسلام ومراحل الفتح.(فتح المغرب) .
٣. فتح الأندلس.
٤. مرحلة ما بعد الفتح .

هذا وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لله، موافقاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يتقبله منا ويعفو عن تقصيرنا..

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد

الحالة العقدية للجزيرة الآيبيرية (الأندلس) قبل دخول المسلمين:

"انتشرت الديانة النصرانية في ربوع إسبانيا الرومانية على المذهب الكاثوليكي الذي كان يدين بطبيعتين للمسيح، واعتنقها الشعب بحماس بالغ، ثم دخلها القوط الآريوسيو المذهب[١] الذي يقول بالطبيعة الواحدة، ولكنهم لم يفرضوا مذهبهم، فكان أفراد كل مذهب يمارسون شعائرهم الدينية في كنائسهم الخاصة بحرية، بمساعدة رجال الدين التابعين لهم.

وأدرك أحد ملوك القوط، وهو: ريكارد (٥٨٦ – ٦٠١م)، عندما حاول إصلاح أوضاع الدولة، وقد اعترضته هذه الظاهرة الدينية الانقسامية التي أدت إلى حدوث مشكلات بين السلطة والكنيسة؛ أن الإصلاح الحقيقي يبدأ بتوحيد المذهب الديني، وأن الأقلية القوطية يجب أن تتحول إلى الكثلكة؛ مذهب الأكثرية.

وهكذا أعلن مجمع طليلطة الديني؛ الذي انعقد في عام ٥٨٧م، تخلي ريكارد عن المذهب الآريوسي واعتناقه المذهب الكاثوليكي الذي أضحى المذهب الرسمي للدولة، وتبعه في هذا التحول سائر القوط، فتوحدّت الكنيسة الإسبانية تحت ظل الملكية القوطية.

أعقب هذا التحول المذهبي تبني اللغة اللاتينية كلغة رسمية في إسبانيا، وتوثقت نتيجة ذلك العلاقات مع البابوية التي أضحى تأثيرها كبيراً في شؤون البلاد، كما أصبح لأسقف طليطلة مركز هام لا يقل عن مركز الملك نفسه."[٢]

"وتبع ذلك اضطهاد متواصل للموحدين دام سنين طويلة، وتشبث أهل الأندلس؛ جنوب شبه الجزيرة الإيبرية، بمذهب التوحيد، ولم يرضوا عنه بديلاً، واضطروا بعد سنين من العذاب إلى إخفاء عقيدتهم الحقيقية"[٣]

"إن القضاء على الازدواجية المذهبية التي أثارت كثيراً من الجدل، لم يحقق الغاية المرجوة بشكل فوري لأنه أمدَّ رجال الدين بالقوة، وحولهم إلى مشاركين في ممارسة السلطة، يُملون وجهات نظرهم وقراراتهم على الأمراء الحاكمين، وأضحت اجتماعات المجامع الكنسية – التي كانت تعقد بشكل دوري في طليطلة– تصارع المجامع الملكية"[٤]

---

(١) المذهب الآريوسي: نسبة إلى الأسقف الليبي (آريوس) الذي درس على تلميذ بولس السميساطي وهو (لوقيانوس)، وكان آريوس يعلم بأن الله إله واحد غير مولود، أزلي، أما الابن فليس أزليًا، بل وجد وقت لم يكن الابن فيه موجودا، وهو خرج من العدم مثل غيره من المخلوقات حسب مشيئة الله، فهو ليس إلهاً، ولايملك شيئاً من الصفات الإلهية، إلا أن الله منحه مجداً جعله فوق كل الخلائق. كتاب موسوعة الملل والأديان، الدرر السنية – ثانيا الآريوسية – المكتبة الشاملة الحديثة ص٢٣٢ .

(٢) تاريخ المسلمين في الأندلس. د.محمد سهيل طقّوش. دار النفائس، بيروت، ط٢ ١٤٢٩هـ . ص٢٥.

(٣) انبعاث الإسلام في الأندلس. أ.د.علي الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ٢٠٠٥م، ص٣٠.

(٤) تاريخ المسلمين في الأندلس. طقوش. ص٢٦.

يؤكد هذا الصراع المذهبي أن الحالة الدينية للجزيرة خلال هذا العصر لم تكن مستقرة، وليس لها دين يحكمها، ولهذا كان الشعب يتطلع إلى حكم عادل يسوس أمور البلاد، فضلاً عن وجود عقائد أخرى سوى الديانة النصرانية، فقد كان في إسبانيا عدد من السكان الوثنيين، ولكنهم تعرضوا للاضطهاد لحملهم على اعتناق النصرانية، فقد فرض مجمع طليطلة الثالث في عام ٥٨٩م على الأساقفة أن يكافحوا الوثنية، وكانت طائفة البشكنس من جملة الجماعات الوثنية التي تعيش في منطقة الشمال الشرقي من الجزية الإيبيرية، ولم يتمكن رجال الدين من حملهم على اعتناق النصرانية.(١)

و البشكنس أمة مستقلة بنفسها، تسكن إلى الشرق من جبال قنتبرية، على أبواب فرنسا، ويسمون أيضاً: الباسك، وتسمية البشكنس تسمية تعريب حيث كان يسميهم العرب بها، وأصل الكلمة مأخوذ من: الباسقونغادس، ولهم لغتهم الخاصة، وهم من أشد أمم الأرض تمسكاً بقوميتهم، وكانت فيهم عادات سيئة كالسحر، وبعض الخرافات الأخرى، ولم يكونوا أصحاب ديانة، بل هم وثنيون في الأصل، وكانت لهم قوة ومنعة وبأس.(٢)

أما عن اليهود في إسبانيا، فقد كان لهم وجود أيضاً قبل الفتح الإسلامي، يقول: أميركو كاسترو: " إذا ما تناولنا الشعب العبري المنتشر والمشتت في عالم العصور الوسطى، سوف نلاحظ أن اليهود في إسبانيا كانوا يشكلون مجموعة فريدة ومثيرة للانتباه، ومنذ التاريخ المصري القديم، نجد أن ذلك الشعب قد عانى الهجمات التي تستهدف القضاء عليه، كما أن عقيدته الروحية التي لا تنفصل عن وعيه بنفسه كشعب جعلته لا يتوافق مع المفهوم الروماني للدولة، وبالتالي جلبت عليه الويلات والمطاردات منذ القدم، ولقد حرص اليهودي على عدم اختلاطه بشعوب أخرى، فهم يأكلون، وينامون، بشكل منفصل عن الآخرين، ولا يتزوجون بنساء من سلالات أخرى"(٣)

واليهود في إسبانيا لم يقر لهم قرار، ولم يهنئوا بالعيش، بل لقد أعملت فيهم النصرانية عملها لإذلالهم ومنع ظهورهم، "فلم يكن في تاريخ اليهود السابق في إسبانيا ما ينبئ البتة بمثل التطور الذي عاشوه في العهد الإسلامي، وقد استوطن اليهود في إسبانيا منذ أيام الروم، أخضعوا فيها مرات عديدة لتشريعات قمعية كما أكرهوا على التحول عن دينهم، ولم تكن هذه التشريعات المعادية لهم تفرض بشكل ثابت، إذ كان يتكرر تجديد هذه التشريعات في العهود المتتالية، ولكن الأساس في هذا التشريع كان الموقف المسيحي

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) أنظر: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية. الأمير شكيب أرسلان. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١ ، ١٤١٧هـ ، ج ١.

(٣) إسبانيا في تاريخها؛ المسيحيون والمسلمون واليهود . أميركو كاسترو، ترجمة: علي إبراهيم منوفي. المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة. ط١ . ٢٠٠٣م. ص ٥٣٨.

المتأصل منذ أيام أغسطس، حيث كان حق اليهودية في البقاء ينحصر في أن يكون اليهود شهوداً على الحقيقة المسيحية وذلك عن طريق إخضاعهم، وحيث أن اليهود بعامة رفضوا رسالة المسيح، فلم يكن لهم أن يتوقعوا من التسامح درجة أفضل من تلك، ولما كانت النصرانية لا تبيح دم اليهود فقد كانت تعد إذلالهم فضيلة، وبذلك اكتسب التشريع القمعي دعماً لاهوتياً"(١)

" واستطاع اليهود في كثير من الأوقات تخفيف القيود المفروضة عليهم عن طريق رشوة النبلاء ورجال الدين، لكنهم مع ذلك تأثروا إلى حد كبير، الأمر الذي دفع العديد منهم إلى الفرار من البلاد، كما اشترك بعضهم في العديد من الحركات المناوئة للسلطة"(٢)

هذا الوضع الذي عاشه اليهود قبل الفتح الإسلامي، كان له الأثر في موقفهم من الفتح الإسلامي، وكيف أنهم استشعروا أن هذا الفتح سيخلصهم مما هم فيه من اضطهاد.

إن هذا التعدد المذهبي والديني الذي عاشته الجزيرة الإيبيرية قبل دخول الإسلام، يعكس بجلاء حالة الاضطراب والتخبط العقدي الذي عاشه الناس هناك، وكيف أن الصراعات بين هؤلاء الفرقاء، والثورات المتتالية التي يقوم بها بعض من يريد الوصول إلى عرش الحكم في تلك الديار، أدت إلى انهيار تلك المجتمعات في كل النواحي، وأنهكت البلاد، فلم تهدأ الجزيرة وتنعم إلا بعد أن دخلتها طلائع الفاتحين المسلمين، يحملون عقيدة التوحيد الخالص.

دخول الإسلام إلى الجزيرة الإيبيرية:

أولاً: فتح بلاد المغرب:

انطلقت الفتوحات الإسلامية في جميع الاتجاهات بعد أن حمل رجال الأمة الأوائل عقيدة التوحيد لإحياء الناس، ودعوتهم إلى دين الله الحق، فكانت فتوحات الشام في عهد الخلفاء الراشدين، والتي دخلت على إثرها بلاد الشام تحت الحكم الإسلامي، ثم أصبحت بعد ذلك دار خلافة، تقوم برسالتها في نشر عقيدة التوحيد وإحياء موات القلوب بنور الإيمان، فلم يرض أبناء الإسلام إلا أن ينطلقوا بدين الله في كل الاتجاهات، لدعوة الناس إلى دين الله.

(١) من مقال لريموند شايندلين بعنوان: اليهود في إسبانيا، ضمن كتاب: الحضارة العربية في الأندلس. تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. ط٢، ١٩٩٩م، ج١. (بتصرف).

(٢) تاريخ المسلمين في الأندلس. طقوش، ص٢٨.

انطلقت جيوش الإسلام باتجاه الشمال الإفريقي بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص ﷺ ومن معه من جنود الإسلام، حيث توغل ابن العاص ﷺ غرباً، ففتح طرابلس، و بَرقة وصبراتة من بلاد ليبيا اليوم، وجاءت له أوامر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ بالتوقف وعدم التقدم حتى لا ينهك جيش المسلمين.(١)

كانت هذه هي بداية الفتح الإسلامي لمنطقة الشمال الإفريقي، ثم تتابعت عمليات الفتح الإسلامي باتجاه الغرب بعد ذلك في عهد عثمان بن عفان ﷺ حيث كان قائد الجيوش عبدالله بن سعد بن أبي سرح ﷺ قد اجتاز طرابلس، واستولى على سفن للروم كانت راسية هناك على الشاطئ، ثم واصل سيره في أفريقية، والتقى بجيوش البيزنطيين في موقع يقال له: (سبيطلة)(٢) في جنوب غربي القيروان التي لم تكن قد أسست بعد، وبعد ذلك اضطر لعقد معاهدة مع البيزنطيين مقابل جزية سنوية، وكان هذا بسبب مواجهات النوبة في مصر التي استدعت عودة ابن أبي سرح.(٣)

وفي عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ تم تعيين عقبة بن نافع(٤) والياً على أفريقية، وبدأ نشاطه بفتح عدد من المواقع، "وقد كان عقبة أقدم المسلمين عهداً بإفريقية وأعرفهم بأحوالها، وكان في نفسه رجلاً شديد الإيمان، تميل نفسه نحو نشر الدين، لا إلى مجرد الفتوح والانتصارات وما وراء هذه من مكاسب.

ويبدو أنه كان قد وضع في نفسه خطة طويلة للفتح، ولهذا لم تكد ولاية إفريقية تؤول إليه حتى سارع بإنشاء مدينة للمسلمين، اختطها في إقليم قَمُّونية جنوبي قرطاجنة، ويغلب أنه لم يُرِد إنشاء مدينة بالمعنى المعروف، وإنما معسكراً، وقد قال: "وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكراً، وتكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر" ، وقد قضى عقبة في إنشائها نحو أربع سنوات، فلم تكد المدينة تقوم حتى بدأت ولاية إفريقية الإسلامية تظهر، ولم يعد العرب مجرد غزاة يخرجون من مصر للغزو ثم

(١) أنظر: التاريخ الإسلامي. محمود شاكر. طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٨ ١٤٢١هـ . ج٣ . ص١٦٣.

(٢) بضم أوله، وفتح ثانيه، وياء مثناة من تحت، وطاء مكسورة، ولام بمدينة من مدن إفريقية وهي كما يزعمون مدينة جرجير الملك الرومي، وبينها وبين القيروان سبعون ميلا. المرجع: معجم البلدان. ياقوت الحموي. دار صادر، بيروت. ط ٢، ١٩٩٥م . ج ٣ ، ص١٨٧.

(٣) التاريخ الإسلامي. محمود شاكر.ص١٦٤.

(٤) عقبة بن نافع عقبة بن نافع بن عبد القيس الاموي القرشي الفهري: فاتح، من كبار القادة في صدر الاسلام. وهو باني مدينة القيروان. ولد في حياة النبي ﷺ ولا صحبة له. وشهد فتح مصر، وكان ابن خالة عمرو بن العاص، فوجهه عمرو إلى إفريقية سنة ٤٢هـ ، والياً، فافتتح كثيرا من تخوم السودان وكورها في طريقه. وعلا ذكره، فولاه معاوية افريقية استقلالا سنة ٥٠هـ ، وسير اليه عشرة الاف فارس، فأوغل في بلاد إفريقية حتى أتى وادي القيروان، فأعجبه، فبنى فيه مسجدا لا يزال إلى اليوم يعرف بجامع عقبة، وامر من معه فبنوا فيه مساكنهم. وعزله معاوية سنة ٥٥هـ ، فعاد إلى المشرق. ولما توفي معاوية بعثه يزيد والياً على المغرب سنة ٦٢هـ. فقصد القيروان. وخرج منها بجيش كثيف، ففتح حصونا ومدنا. وصالحة أهل فزان، فسار إلى الزاب وتاهرت. وتقدم إلى المغرب الاقصى، فبلغ البحر المحيط، وعاد. فلما كان في تهودة (من أرض الزاب) تقدمته العساكر إلى القيروان، وبقى في عدد قليل، فطمع به الفرنج، فأطبقوا عليه، فقتلوه ومن معه. ودفن بالزاب. المصدر: الأعلام. الزركلي. دار العلم للملايين ، بيروت، ط ١٥(٢٠٠٢) ، ج: ٤، ص: ٢٤١.

يعودون إليها، بل أصبحت العاصمة الجديدة مركزاً تخرج منه الغزوات، وتنظم منه شؤون البلاد، وهذا في ذاته تطور له معناه."[١]

"قال إبراهيم بن القاسم: ووصل عقبة بن نافع الفهري إلى أفريقية في عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها ودخلها ووضع السيف في أهلها فأفنى من بها من النصارى ثم قال: إن أفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر. فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط. فقال عقبة: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركه صاحب البحر إلا وقد عُلم به. وإذا كان بينها وبين البحر ما يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون فلما اتفق رأيهم على ذلك قال: قربوها من السبخة فإن دوابكم الإبل وهي التي تحمل أثقالكم، فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو والجهاد حتى يفتتح الله لنا منها الأول فالأول، وتكون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها آمنة من عادية البربر والنصارى."[٢]

بعد أن اختط عقبة مدينةَ القيروان وبنى بها المسجد، وموضع الإمارة، توغل في بلاد المغرب فاتحاً حتى وصل إلى البحر، وهو المحيط الأطلسي، فأقحم فرسه فيه حتى بلغ نحره، ثم قال: "اللهم إني أشهدك ألّا مجاز، ولو وجدتُ مجازاً لجزت" ، ثم انصرف راجعاً، وتعاونت عليه البربر، فلم يزل يقاتل حتى قُتل رحمه الله.

بعد مقتل عقبة، أسند الخليفة الأموي: عبد الملك بن مروان قيادة العمليات العسكرية في شمال أفريقية إلى زهير بن قيس البلوي[٣]، والذي كان أول عمل قام به انتصاره الكبير على كسيلة بن لمزم؛ قائد قبيلة أوروبا البربرية التي تتزعم المغربين؛ الأوسط والأقصى.

لقي زهير بن قيس مصرعه في صدامه مع البيزنطيين عند درنة، مما دفع عبد الملك بن مروان إلى تجميد الجبهة الأفريقية بانتظار فرص أفضل.

---

(١) فجر الأندلس. حسين مؤنس. دار الرشاد، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٩هـ ، ص٤٣ .

(٢) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب. ابن عذاري، تحقيق: بشار معروف. دار الغرب الإسلامي. تونس. ط١ ١٤٣٤هـ. ج ١، ص ٤٤ .

(٣) زهير بن قيس البلوي؛ قال ابن يونس: يقال إن له صحبة، يكنى أبا شداد. شهد فتح مصر. وروى عن علقمة بن رمثة البلوي، وروى عنه سويد بن قيس، وقتلته الروم ببرقة سنة ست وسبعين، وذكر له قصة مع عبد العزيز بن مروان قال فيها: إنه قال لعبد العزيز، وهو أمير على مصر وقد ندبه إلى برقة فخاطبه بشيء، فأجابه زهير: أتقول لرجل جمع ما أنزل الله على نبيه قبل أن يجمع أبواك هذا؟ ونهض إلى برقة، فلقي الروم في عدد قليل فقاتل حتى قتل شهيدا. المصدر: الإصابة في تمييز الصحابة. دار الكتب العلمية ، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م ، ج: ٢، ص: ٤٧٨

وفي عام ٧٤هـ، وجد عبد الملك نفسه قوياً إلى الحد الذي يمكنه من استئناف سياسة الفتوح في شمالي أفريقيا، خاصة بعد أن تجاوزت الخلافة بعض المحن والثورات الداخلية، وجاء اختيار قائد جديد لهذه الجبهة، هو: حسان بن النعمان الغساني(١).

كانت فاتحة أعمال حسان فتحه لقرطاجنة؛ أقوى القواعد البيزنطية، وحتى يحول دون عودة البيزنطيين إليها، فقد دمر ميناءها، وقد دعم هذا الفتح الموقف الإسلامي، فقام المسلمون بعمليات سريعة استهدفت المدن الساحلية ففتحوها باستثناء جيوب قليلة، منها: سبتة؛ التي ظلت الحصن القوي للبيزنطيين.(٢)

قال ابن عذاري: " قدم أفريقية في عسكر عظيم، فلم يدخل المسلمون قط أفريقية بمثل ما دخلها حسان بن نعمان، فلما حصل القيروان سأل أهل أفريقية: من اعظم ملوك بها قدراً؟ فقالوا: صاحب قرطاجنة؛ دار ملك أفريقية. فسار حسان حتى نزل عليها، وكان بها من الروم خلق لا يحصى كثرة، فخرجوا إليه مع ملكهم، فقاتلهم حسان بن نعمان حتى هزمه وقتل أكثرهم، ثم نازلها حتى افتتحها، وهي كانت دار الملك بأفريقية.

وكانت قرطاجنة مدينة عظيمة تضرب أمواج البحر سورها، وهي من مدينة تونس على اثني عشر ميلاً، وكان بينهما قرى متصلة عامرة، وكان البحر لم يخرق إلى تونس، وإنما انخرق بعد ذلك.

وفي هذه المدينة آثار عظيمة، وأبنية ضخمة، وأعمدة ثابتة غليظة، تدل على عظم قدرة الأمم الدائرة، وأهل تونس إلى الآن لا يزالون يطلعون في خِرابها على أعاجيب ومصانع لا تنقطع بطول الأزمان لمتأمل.

فلما قدم حسان إليها وقتل فرسانها ورجالها، اجتمع رأي من بقي بها على الفرار منها، وكانت لهم مراكب كثيرة، فمنهم من مضى إلى صقلية، ومنهم من مضى إلى الأندلس، فلما انصرف عنها حسان، وعلم أهل بَوَادِيْها وأقاليمها هروب الملك عنها، بادروا إليها فدخلوها، فرحل إليها حسان، ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف، فقتلهم قتلاً ذريعاً وسباهم ونهبهم، وأرسل لمن حواليها فاجتمعوا إليه مسارعين خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه، فلما أتوه ولم يبق منهم أحد أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها، فخربوها حتى صارت كأمس الغابر، ثم بلغه أن النصارى

(١) حسان بن النعمان بن عدى الأزدي الغساني، من أولاد ملوك غسان: قائد، من رجال السياسة والحرب. من المشهورين في الفتوحات الإسلامية. كان يلقب بالشيخ الأمين. ولى إفريقية في زمن معاوية بن أبي سفيان. ثم كان عاملا على مصر في أيام عبد الملك بن مروان. دانت له إفريقية كلها. وهو أول من دخلها من أمراء الشام في زمن بني أمية. وبعد أن عم الإسلام إفريقية، أقام بالقيروان، فجدد بناء مسجدها سنة ٨٤هـ، ودون الدواوين وولى الولاة، ثم رحل قاصدا عبد الملك بن مروان، ومعه ٣٥ ألف فارس. واعتزل الأعمال في أول عهد الوليد بن عبد الملك، وتوجه إلى أرض الروم غازيا، فتوفى بها. المصدر: الأعلام للزركلي. ج٢، ص١٧٧.

(٢) أنظر: تاريخ الدولة الأموية، أ.د.محمد سهيل طقوش. دار النفائس. بيروت. ط ٧، ١٤٣٧هـ .

اجتمعوا وأمدهم البربر بعسكر عظيم في بلاد صطفورة، فرحل إليهم حسان حتى لقيهم، وقاتلهم حتى هزمهم، وقتل الروم والبربر قتلاً ذريعاً، وحمل عليهم أعنّة خيله فما ترك في بلادهم موضعاً إلا وطئه، ولجأ الروم هاربين خائفين باجةَ فتحصنوا بها، وهرب البربر إلى إقليم بونة وانصرف حسان إلى القيروان."(١)

بعدما استراح "حسان" وجنوده من قتال الروم بقرطاجنة، سأل عن الذي يقود قبائل البربر الوثنية فقيل له: امرأة اسمها "الكاهنة" بجبل "أوراس"، وسميت بهذا الاسم؛ لأنها كانت تتكهن ويأتيها الجن ببعض الأخبار، وكان لها ثلاثة أولاد ورثوا الرياسة في قبيلة "جراوة" البربرية، وكانت مهابة ومطاعة من البربر جميعًا، فاستبشر المسلمون بذلك، فعندما يكون القائد امرأة وأيضًا كاهنة، فلن يفلح أمرهم أبدًا، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان.

انطلق "حسان" وجنوده لمحاربة الكاهنة والبربر، ووصلت الأخبار إلى الكاهنة، فدعت قبائل البربر لقتال المسلمين، فخرجت من جبال "أوراس" أعداد مهولة من البربر، والتقى الطرفان عند نهر "نينى" بوادي "مكناسة" واقتتلوا قتالًا شديدًا استغل فيه البربر تفوقهم العددي الكبير ضد المسلمين، فوقعت الهزيمة بقدر الله عز وجل على المسلمين، وذلك في سنة ٧٨هـ، وانحاز المسلمون إلى "القيروان"، وسيطرت الكاهنة على معظم إفريقية، ولكنها لم تواصل القتال حتى القيروان كما فعل "كسيلة" من قبل.

استخلف "حسان" على القيروان "أبا صالح" وعسكر هو وفرقة من جنوده عند منطقة متقدمة بين "القيروان" و"إفريقية" ليكون ردءًا للمسلمين، وظل معسكرًا فترة طويلة وصلت لخمس سنوات؛ وذلك انتظارًا للإمدادات القادمة من الشام بناء على أوامر الخليفة عبد الملك بن مروان.

لم تكن هزيمة المسلمين في معركة نهر "نينى" لتخفى على الرومان المتربصين بالمسلمين في الشمال الإفريقي، خاصة بعد سقوط درة تاجهم الإفريقي "قرطاجنة"، وكان الإمبراطور الجديد للرومان "ليونتيوس" قد أهمه وأحزنه، هذا السقوط، وبدأ منذ ولايته سنة ٧٤هـ في الإعداد لاستعادة "قرطاجنة" مرة أخرى، وبالفعل وصلت أخبار الهزيمة لروما، فأرسل "ليو" أسطولًا كبيرًا إلى "قرطاجنة" يقوده أمهر القادة الرومان وهو "يوحنا"، وهجم الأسطول على المدينة واستولى عليها، وفعلوا فظائع شنيعة بالمسلمين هناك، حتى إن "يوحنا" الصليبي كان يقتل المسلمين بيده.

(١) البيان المغرب. ابن عذاري. ص ٦٠.

وبهذا السقوط ومن قبلها الهزيمة عند جبال "أوراس"، تم انتقاص إفريقيا كلها على المسلمين وخرجت من يدهم جملة، ولم يبق في طاعتهم شبر واحد من الأرض مما يلي قابس غربًا، وتفاهم الروم والبربر فيما بينهما على أماكن النفوذ، فسيطر الروم على السهول الساحلية، وسيطر البربر على السهول الداخلية.

مكث "حسان" وجنوده معسكرًا في المنطقة المسماة بقصور حسان، منتظرًا إمدادات أمير المؤمنين طيلة خمس سنوات، انشغل فيها المسلمون في العراق بالثورات والفتن الداخلية خاصة فتنة ابن الأشعث، التي استمرت عدة سنوات واستهلكت كثيرًا من قوى المسلمين التي كان حري بها أن تكون لخدمة الإسلام وحركة الفتح الإسلامي.

لما رأت "الكاهنة" إبطاء المسلمين عنها، قالت للبربر: "إن المسلمين إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي، فلا أرى لكم إلا خراب إفريقية كلها حتى ييأس منها المسلمون، فلا يكون لهم رجوع إلى آخر الدهر"، وبالطبع كان هذا رأي أحمق وخاطئ، يكشف مدى جهل "الكاهنة" وأمثالها من أعداء الإسلام بحقيقة الجهاد الإسلامي، وأهدافه، و غاياته، وأن الهدف الحقيقي هو إعلاء كلمة الله ونشر الإسلام والتوحيد بين العالمين، وأن رسالة المجاهد لا تعرف دنيا ولا متاع، وكيف ذلك وقد باع نفسه ابتداءً لله عز وجل، ورضي بالغربة والبعد عن الوطن والأهل والعيش في ظل خيمة مستصحبًا سيفه فهو قرينه ونعم القرين.

انطلق البربر كالإعصار المدمر في كل أنحاء إفريقية، يقطعون الأشجار، ويهدمون الحصون، ويحرثون المزارع، فخربوا إفريقية تخريبًا تامًا، ولم يكن في ربوع الأرض مثلها في الخيرات والعمران، حتى قيل إن إفريقية ظلًا واحدًا من طرابلس إلى طنجة من اتصال العمران، فأدت هذه الخطوة الحمقاء من الكاهنة الخرقاء بثورة كثير من أهل البلاد عليها، وهروب الكثير منهم إلى الأندلس وجزائر البحر المتوسط، واستغاث كثير من قبائل البربر البرانس بالمسلمين لرد عادية الكاهنة وأتباعها من البربر البتر.

بعدما قضى "عبد الملك بن مروان" على الثورات الداخلية بالعراق، وجه كل اهتمامه للمغرب العربي، فوجه أموالًا وإمدادات كثيرة للقائد "حسان بن النعمان"، فوافته هذه الإمدادات في نفس وقت قدوم الكثير من أهل المغرب يستغيثون من أفعال الكاهنة، فرحل "حسان" وجنوده في أواخر سنة ٨١هـ لقتال الكاهنة وأتباعها البربر الذين فقدوا معظم التعاطف والتأييد السابقين من أهل إفريقية، ولما سمعت الكاهنة بقدوم المسلمين،

تحركت من قاعدتها بجبال الأوراس، مغرورة بقوتها وكثرة من معها وسابق انتصارها على المسلمين، ولكن خاب ظنها، وضل سعيها، وذاقت وبال أمرها وانتصر المسلمون انتصارًا عظيمًا، وقتلت الكاهنة في المعركة، وانتهى شرها للأبد، وبعدها أخلد البربر إلى الطاعة والسكون، ودخلوا في دين الله أفواجًا.

عاد "حسان" بجيشه للقيروان. ولكن ليس للسكون والراحة، بل للاستعداد لمعركة أخرى مع الروم من أجل استعادة "قرطاجنة"، وكان القائد "يوحنا" قد أصلح أسوار المدينة المنهدمة، وقوى تحصينها، واستعد لمنازلة المسلمين، فبدأ "حسان" هجومه على المدينة، بتطهير جبال "زغوان" من بعض القلاع والحصون التي يسيطر عليها الروم والبربر، ثم حرك الأسطول الإسلامي للانقضاض على الأسطول البيزنطي، وأصبح "يوحنا" ورجاله محاصرين داخل المدينة واشتبك مع المسلمين عدة مرات ولكنه فشل في كسر الحصار، وتعرض لهزائم شنيعة، جعلته يجمع جنوده ويفر تحت جنح الظلام داخل سفن إلى القسطنطينية، واستعاد المسلمون "قرطاجنة" وخرج الروم منها إلى الأبد.

بعدما زال خطر الروم والبربر، واستقرت الأمور تقريبًا بالشمال الإفريقي، شرع "حسان بن النعمان" في تأسيس دولة إسلامية على أسس متينة وراسخة، وهو كما قلنا في بداية الحديث من بيت ملك ورياسة، ولديه علوم القيادة وتأسيس الدول، فبدأ بتدوين الدواوين التي يكتب فيها اسم المسلمين وتعدادهم، ووظائفهم، وما يعطى كل واحد منهم من بيت المال، ونظم الخراج، ووضع الجزية على نصارى إفريقية، وأنشأ دارًا لصناعة السفن والأسلحة اللازمة لمواصلة الجهاد.

قام "حسان" بعمل في منتهى الذكاء، وهو بناء مدينة جديدة في الطريق بين القيروان وقرطاجنة لتكون محرسًا بريًا ومعسكرًا للجند الإسلامي، وقت هجوم الأعداء من البحر، وكانت المدينة الجديدة هي "تونس" الآن، وحفر بها قناة تتصل بالبحر الأبيض، وأصبحت تونس بعد ذلك درة المغرب العربي.

اهتم "حسان" جدًا ببناء المساجد في كل بقعة مفتوحة بالمغرب العربي، وأقام فيها القراء والفقهاء لتعليم البربر حديثي العهد بالإسلام القرآن، والسنة، ونشر اللغة العربية بينهم، ثم قام "حسان" بضرب دنانير ونقود جديدة بدلًا من دنانير الروم التي كان يتعامل بها البربر، ليقطع أي أثر أو علاقة للروم بهذه البلاد، وقام بتقسيم الأراضي بين قبائل البربر، فعين لكل قبيلة خطتها، وألزم كل قبيلة زراعة أرضها ورد زكاة الزرع لبيت المال.

وبالجملة أنشأ "حسان" دولة على الطراز الحديث القائم على الاهتمام بالبنية التحتية والرأسية على حد السواء، لذلك فهو يعتبر بحق مؤسسة دولة الإسلام بالمغرب.

لقد مكث "حسان" أميرًا على إفريقية قرابة اثنتي عشرة سنة، قائدًا ومجاهدًا عبقريًا، سياسيًا ماهرًا، حتى تم عزله في ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر وذلك سنة ٨٥هـ، وكان قد شارف على الثمانين، فلما دعا داعي الجهاد، خرج مجاهدًا بأرض الروم، وهناك نال أعز ما يطلب، وما سعى له طوال عمره، نال الشهادة، ومضى إلى ربه عز وجل راضيًا مرضيًا عنه بإذن الله عز وجل.

بعد أن عزل عبد العزيز بن مروان؛ والي مصر حسانَ بن النعمان؛ والي أفريقية، ولى مكانه موسى ابن نصير[١]، وكان ذلك في أواخر سنة٨٥ هـ، أو في أوائل سنه ٨٦ هـ .

سار موسى متوجهاً إلى المغرب، فلما وصل إلى أفريقية وجد أن البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسان، فجمع الناس وألقى فيهم خطاباً بيّن فيه بوضوح الخطوط العريضة لسياسته العامة في الفتح؛ قتال العدو القريب أولاً، ثم التغلغل بالتدريج لقتال البعيد.

وتنفيذاً لهذه الخطة بدأ موسى بن نصير رحمه الله باستعادة جبل: زغوان، وما حوله، وبنواحي زغوان قبائل من البربر، فبعث إليهم موسى خمسمائة فارس، فاستعاد زغوان وسبى، فكان أول سبي دخل القيروان، كما وجه موسى ابنه عبدالله إلى بعض نواحي أفريقية فأتى بسبي كثير، ثم وجه ابنه مروان فأتى كذلك بسبي كثير، واستطاع ابن نصير أن يقضي على جيوب المقاومة في أفريقية، وخضعت له قبائل البربر، وجعل من القيروان قاعدة أمنية ينطلق منها، وهو آمن على خطوط مواصلاته.

بعد أن تم لموسى إخضاع المغرب الأوسط؛ من صحراء درعة إلى السوس الأقصى، إلى بلاد المصامدة، تطلّع موسى نحو طنجة التي كانت تخضع للأمير الرومي: جوليان.[٢]

قال ابن عذاري: " ثم خرج موسى رحمه الله غازياً من أفريقية إلى طنجة، فوجد البربر قد هربوا إلى الغرب خوفاً من العرب، فتبعهم وقتلهم قتلاً ذريعاً، وسبى منهم سبياً

(١) موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء، ابو عبد الرحمن: فاتح الاندلس. اصله من وادي القرى (بالحجاز) كان ابوه نصير على حرس معاوية. ونشأ موسى في دمشق، وولى غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص وبنى بها حصونا، كان شجاعا عاقلا كريما تقيا، لم يهزم له جيش قط. وبعد انتهاء فتوحه في الأندلس استدعاه الخليفة عبدالملك بن مروان، وعاد إلى دمشق فدخلها سنة ٩٦ والوليد في مرض موته، فلما ولي سليمان بن الوليد استبقاه عنده، وحج معه فمات بالمدينة، وقيل غير ذلك. المصدر: الأعلام ، للزركلي، ج٧، ص٣٣٠.

(٢) أنظر: صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، د.علي الصلّابي. دار اليقين. مصر. ط١. ١٤٣٢هـ

كثيراً، حتى بلغ السوس الأدنى، وهو بلاد درعة، فلما رأى البربر ما نزل بهم استأمنوا وأطاعوا، فولى عليهم والياً، واستعمل مولاه: طارق بن زياد[١] على طنجة وما والاها في سبعة عشر ألف من العرب واثني عشر ألف من البربر، وأمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين، ثم مضى موسى قافلاً إلى أفريقية."[٢]

هنا يكون موسى بن نصير رحمه الله قد أنهى تقريباً فتح بلاد المغرب الأقصى، واطمأن على وضع الممالك التي سيطر عليها مع جيشه، واستخلف عليها ولاة يثق بهم، وعاد لمركز الولاية ليدير بقية أعماله هناك.

أما في طنجة، فقد برز الدور الكبير الذي بدأ يقوم به واليها من قبل ابن نصير، القائد البطل: طارق بن زياد رحمه الله.

" وحدد النصر الإسلامي مستقبل البربر الذين تحولوا إلى الإسلام، وانخرطوا في الجيوش الإسلامية، وقدِّر لبعضهم أن يصبح أكثر حماسةً للإسلام من العرب أنفسهم، ويعدُّ هذا التحول الذي طرأ على وضعهم بمثابة الخطوة الأولى في المسيرة الطويلة نحو فتح الأندلس، لأن موسى بن نصير استغل هذه النزعة عند البربر و وجههم إلى الفتوح، ولم يكن أمامه في هذه الحالة سوى عبور المضيق لتحقيق هذا الهدف"[٣]

لقد أثبت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب أن المسلمين بجهادهم الطويل، وصبرهم على ما يلاقون من عنت، ينقذون الناس من الضلال الذي عاشوه بعيداً عن الإسلام، ولهذا فإن القبائل التي تدخل الإسلام وتجد سماحة هذه العقيدة الصافية، تنطلق في طريق الفتوحات، ونشر الإسلام بكل حماسة، ولهذا كان لطارق بن زياد رحمه الله هذا الظهور والقوة والتمكن، الذي جعله يحفر اسمه في ذاكرة التاريخ الإسلامي بكل جدارة.

ثانياً: الفتح الإسلامي للأندلس:

بعد أن أصبحت بلاد المغرب تحت سيطرة المسلمين، بدأت أنظارهم تتجه شمالاً إلى ما وراء بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، ونفوسهم تتوق إلى عبور المضيق للضفة الأخرى لنشر دين الله هناك.

أما عن الوضع القائم في الجزيرة الأيبيرية (الأندلس لاحقاً) فقد كان الحكم فيها لرجل اسمه: غيطشة، وقد ثارت حوله مجموعة من الثورات بهدف الإطاحة بحكمه،

(١) طارق بن زياد الليثي بالولاء: فاتح الأندلس. أصله من البربر. أسلم على يد موسى بن نصير، فكان من أشد رجاله. استدعاه الوليد إلى الشام، فقصدها مع موسى سنة ٩٦ هـ. وأقوال المؤرخين مضطربة في خاتمة أعماله، والراجح أنه لم يول القيادة بعد ذلك. المصدر: الأعلام، للزركلي، ج٣، ص٢١٧.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري. ص ٦٩.

(٣) تاريخ المسلمين في الأندلس. محمد طقوش. ص٣١، ٣٢.

وكان قد عهد بالحكم إلى أحد أولاده؛ ويسمى: أخيلا، لكن كبار القوط لم يكونوا ليرضوا بأن يحكم البلاد صبي، ولم يخضعوا لذلك، وتخوف كثير منهم من حكم أخيلا، وأنه قد يطمع فيه بعض الأوصياء مثل: رخشندش، والذي كان من المقربين للبلاط في عهد غيطشة، فامتنع من أقام منهم في طليطلة عن الطاعة، واستقل بالأطراف والنواحي منهم من كان مقيماً بها، ودارت رحى حرب بين المتنافسين، واستمرت الفوضى في البلاد نحو العام والنصف، وبدأ الوصي: رخشندش، يجمع الأنصار، ويتحبب إلى عامة الناس، خاصة أهل المزارع والمدن، واستطاع كسبهم إلى جانبه، وجمع حوله عدد من أهل الرأي، واعتبروا أنفسهم مجلس شيوخ للحل والعقد، فاجتمعوا على أن يولوا على البلاد رجلاً اسمه: ردريكو، أو رودريجو ، وهو من يعرف عند العرب باسم: (لذريق)، واستعدوا لحمايته ونصرته، والقضاء على منافسيه بحد السيف.(١)

واجه الملك لذريق خلال حياته السياسية العديد من الصعاب، والتي لم يتمكن من تجاوزها، ولعل من أهمها:

١. الحاجة للمال للإنفاق على حملاته العسكرية، وإخضاع الثورات التي اندلعت في نواحٍ عديدة من البلاد ضد حكمه، لذلك حاول الاستيلاء على خزائن أسلافه الموجودة في كنيستي سان بيدرو، وسان بابلو في طليطلة، لكنه واجه معارضة شديدة من جانب رجال الدين، عندئذ لجأ إلى فرض مزيد من الضرائب ومصادرة بعض ثروات الكنيسة.
٢. انقسامات سياسية حادة، خاصة في الشمال، نتج عنها فتن وحركات عصيان، فقضى معظم أيام حكمه القصيرة الأمد ينتقل من جبهة لأخرى لإخماد هذه الثورات، وهذا من الأسباب التي سهلت على المسلمين القادمين من جنوب الجزيرة مهمة الفتح.
٣. تعرضه لضغوط عسكرية من قبل خصمه: أخيلا، الذي يراه مغتصباً للسلطة.
٤. تابع سياسة أسلافه التقليدية في جمع المال، فأرهق البلاد والعباد بالضرائب الفادحة، حتى عم الفقر على الرغم من غنى البلاد بالموارد الاقتصادية.
٥. انشغل لذريق بتشويه سمعة غيطشة، وتدبير المؤامرات ضد أبنائه، حتى ينفر الناس عنهم، واستعان ببعض رجال الدين؛ الذين عقدوا المجامع الدينية لهذه الغاية،

(١) أنظر: فجر الأندلس. حسين مؤنس، دار الرشاد. القاهرة. ط ٤، ١٤٢٩هـ ، من ص ١٢ إلى ص ٢٠ .

وأصدروا القرارات التي تحرص على توجيه الاتهامات من كل نوع للملك السابق، وإلصاق كل أعمال الظلم التي لحقت بالبلاد به.[١]

هذه الأسباب وغيرها جعلت أهل الجزيرة الأيبيرية يبحثون عن المخلص لهم من هذا الواقع الذي يعيشونه، "وكانوا يتحينون الفرصة لاستعادة ملكهم، ووجدوها في الفتح الإسلامي، ووهموا أن المسلمين طلاب غنائم، فسوف لا يستقرون في إسبانية، لكنهم لم يجدوا لهذا الوهم إشارة، فالمسلمون حملة عقيدة، يعملون على نشرها وإعلائها"[٢]

في ظل هذه الظروف التي تعيشها الجزيرة الأيبيرية كانت الحاجة ماسة إلى قوم أصحاب بناء سليم، وعقيدة صافية، فالنصر لا يتحقق إلا لهؤلاء، وقد وجدت تلك البلاد بغيتها في أقوام اختارهم الله لنشر عقيدة الإسلام الصافية، "ولا يرجع انتصار الإسلام إلى التفوق العسكري، بل إلى نوع البناء العسكري للفرد، جندياً أو قائداً، وهو من نوع البناء العام للمجتمع، الذي يقوم على العقيدة الإسلامية، وشريعتها الربانية، وهذا نلحظه بوضوح تام في الأندلس وغيره"[٣]

لقد كان هدف نشر العقيدة الصحيحة هو الدافع الأول لعملية الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، فقد وصل المسلمون آنذاك إلى أوج قوتهم بعد أن سيطروا على الشمال الإفريقي، فكان من الطبيعي بعد أن تحقق لهم هذا النصر، أن يفكروا في اجتياز بحر الزقاق (مضيق طارق) وهم يرون خلفه بلاداً يمكنهم تناولها ضمن حملة الفتح، وسمعوا عنها كثيراً، وعلموا أن أهلها يعانون من حكم القوط، ويرغبون الخلاص، لذلك كان تفكير القائد الفذ: طارق بن زياد رحمه الله في أن ينتهز هذه الفرصة لينشر الدين الحق، وينقذ الناس من الكفر.

" والمعروف أن موسى بن نصير قد وضع الخطط لنشر الإسلام في أوسع بقعة ممكنة، والراجح أنه تطلع إلى الأندلس بعد تثبيت أقدام المسلمين في المغرب الأقصى، فراح يتابع أخبارها ويستقصي أوضاع أهلها، وأضحت مدينة طنجة مركز عمليات المسلمين في تلك المرحلة الاستطلاعية بسبب قربها منها، وبفعل موقعها على بحر الزقاق.

وأثبت طارق بن زياد حسن ولائه للإسلام من واقع تعبئة شعور مواطنيه من البربر المسلمين للقيام بالعمل الجهادي المقبل، وهو فتح الأندلس، وإرسال ما يصل من

(١) أنظر: تاريخ المسلمين في الأندلس. محمد سهيل طقوش.
(٢) التاريخ الأندلسي، د.عبدالرحمن الحجي ، ص٢٥.
(٣) المرجع السابق.

أخبارها إلى القيادة العليا في القيروان"[١] وأن فتحه للأندلس لم يكن إلا حلقة في سلسلة الفتوحات الإسلامية المباركة التي أخرج الله بها الناس من ظلمات الكفر إلى نور العقيدة الإسلامية الصافية، وأن "امتداد الفتح إلى الأندلس كان أمراً طبيعياً يتمشى مع حقيقة الدعوة الإسلامية وطبيعة القائمين بها، وقد تم ذلك بعد أن تهيأت الظروف الملائمة، وحان وقته"[٢]

مرحلة مابعد الفتح:

انتصر المسلمون بقيادة طارق بن زياد رحمه الله في معركة وادي برباط، أو وادي لكه وبدأت مرحلة الفتح الإسلامي لبقية المدن الأندلسية، وخاض ابن زياد معارك متوالية، وانطلق متوغلاً في بلاد الأندلس، ينشر العقيدة الصحيحة، وتخضع له المدن، وفي الحقيقة كان الناس متعطشون لحكم ينقذهم من ظلم القوط وسطوة لذريق، فكان الحكم الإسلامي المؤيد بالوحي هو الحل.

كانت طليطلة عاصمة القوط، وهي مركز الثقل الديني لهم، وفيها كنائسهم ومراسم أعيادهم، فهي تشكل لهم مركز القوة الروحية، وقد أدرك طارق بن زياد رحمه الله أهمية هذه المدينة، وموقعها الاستراتيجي، ومكانتها عند النصارى، فوجه جنوده صوبها، وانطلق إليها فاتحاً، ناشراً دين الإسلام ليمحو آثار النصرانية وغيرها من الملل المنحرفة.

"اتجه طارق بمن معه إلى الشمال، فعبر نهر الوادي الكبير، وكانت وجهته أن يدخل طليطلة؛ وهي عاصمة القوط، وتبعد عن مكان المعركة بما يزيد على ستمئة كيلو متر، في أرض وعرة كلها جبال ووديان، ومضايق عسيرة.

وإنه لمن عجائب التاريخ التي تدل على قوة الأجيال الإسلامية الأولى وعزيمتها وإيمانها، أن تلك القوة الإسلامية استطاعت بعد معركة طاحنة أن تعبر تلك المسافة الشاسعة، وأن تصل إلى طليطلة وتدخلها بعد مقاومة عنيفة.

استقر طارق في طليطة، وهرب منها كبار القوط، وكذلك رجال الدين، وعلى رأسهم أسقف طليطلة المسمى: "سندريد" في اتجاه شمالي شرقي، في الطريق الذي يسميه العرب: وادي الحجارة، والمراد بالحجارة هنا: جمع حجر، وهو الحصن، وقد حمل

(١) تاريخ المسلمين في الأندلس، محمد طقوش. (بتصرف يسير) .

(٢) المسلمون في المغرب والأندلس. محمد محمد زيتون، دار النمير للنشر والتوزيع. دمشق. ط عام ١٤١١هـ . ص١٥٥ .

القساوسة معهم ذخائر الكنيسة، ومن بينها مذبح الكنيسة، والمذبح: منضدة فاخرة مزينة بالجواهر، تستعمل في الكنيسة لأغراض الصلاة.

وعند بلدة صغيرة تسمى: "الكالا دي هنارس"، ويسميها العرب: قلعة عبدالسلام، وتسمى أيضاً: مدينة المائدة، أدرك العرب فيها الهاربين من طليطلة من رجال الدين، وحصلوا منهم على ذخائر ذات قيمة كبيرة، ومن بينها مذبح الكنيسة؛ الذي سماه العرب: مائدة سليمان، وكانت من أكبر الذخائر التي حصل عليها العرب في فتوحاتهم، وقد استولى طارق على تلك البلدة الصغيرة بما فيها من غنائم، وضمها إلى حوزة بلاد الإسلام"[1]

من هذا يتضح أن الهدف الأسمى من هذا الفتح المبارك، هو توسيع رقعة الإسلام، ونشر دين الله، والعقيدة الصحيحة، واتضح هذا جلياً في ممارسات الجيش الإسلامي، الذي طمس معالم النصرانية المحرفة، وأسس لقواعد الإسلام الصحيح في تلك البلاد.

كما يتضح التعامل مع أصحاب الملل الأخرى؛ كاليهود والنصارى، فقد تعامل معهم الفاتحون كما جاءت به الشريعة الإسلامية من الإحسان إليهم والبر بما أنهم قد دخلوا تحت لواء المسلمين، ولهذا فالمسلمون لم يهدموا كنيسةً، ولم يقتلوا راهباً أو حبراً، بل كانوا يمكنون أصحاب الملل الأخرى من ممارسة تعاليم وشعائر ملتهم، ويضمنون سلامتهم، ويعاهدونهم على ما يضمن عيشهم بسلام وفق تعاليم الإسلام العظيم، وقواعد العقيدة الإسلامية الصحيحة.

كان هذا واضحاً بعد استقرار الحال تقريباً في الأندلس، وذلك بعد أن بدأ عهد الولاة في الأندلس، في عام ٩٧هـ، والذي بدأ بولاية عبدالعزيز بن موسى بن نصير، والذي كان والياً صالحاً مجاهداً، واصل الفتوحات بعد أبيه، وحافظ على بلاد الأندلس، وكان متبعاً منهج الإسلام في التعامل مع غير المسلمين ممن وقعوا تحت يده، "وكذلك يؤكد ابن عذاري إنه "افتتح مدائن كثيرة وكان من خير الولاة" . والأرجح إن أكثر مناطق غرب الأندلس، وكذلك منطقة برشلونة وأحوازها، قد تم فتحها زمن عبد العزيز بن موسى، وفقا لما أشار إليه بإيجاز المقري وابن عذاري، وأيضاً على اعتبار أنه ما وردت أية إشارة تنبه إلى فتح هذه المناطق على يد قائد آخر، أو في فترة زمنية مختلفة. على أن ما حظي باهتمام المؤرخين هو إنجازه فتح سواحل شرق الأندلس؛ المقابلة لبلدان الشمال الأفريقي.

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس. دار الرشاد، القاهرة. ط١١، ١٤٣٠هـ (بتصرف).

لقد فتح عنوة مدن: غرناطة، ومالقة، ثم اتجه نحو كورة تدمير، ومركزها آنذاك مدينة أوريولة، وكان عليها مقدم من القوط يدعى: تدمير.

لاقى الزعيم القوطي الغزاة المسلمين، وتصدى لهم عند مدينة قرطاجة، فهزم هزيمةً منكرة، وقُتل من أتباعه خلق كثير، فعاد إلى عاصمته يتحصن فيها، ولما شدد المسلمون حصارهم على المدينة، ونفذت من أهلها أسباب الصمود والبقاء، قصد صاحب أوريولة، وهو بهيئة رسول، المسلمين وفاوضهم على الصلح ودخول المدينة دون قتال.

صالحه المسلمون على ذلك، وبذلك بسط عبد العزيز بن موسى سلطان دولة الإسلام على كورة تدمير بمدنها وحصونها سلماً وبموجب معاهدة، تبقي سكان هذه المناطق أحراراً في عقائدهم ودينهم، سادة في ممتلكاتهم وأراضيهم، على أن يدفعوا ضريبةً سنويةً للدولة، وأن لا يتعاونوا مع أعدائها وأن يدينوا بالولاء للدولة الإسلامية."[1]

على هذا المبدأ بدأ حكم المسلمين للأندلس، وفق القاعدة النبوية التي علمها الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه، وأعلنوها في كل فتح من فتوح الإسلام: إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

لقد كانت مرحلة الفتح، وعهد الولاة الذي جاء بعد مرحلة الفتح، واستمر ما يزيد على أربعين سنة، عهد تأسيس، لكنه عصفت به رياح العصبيات من ناحية، والخلافات من ناحية أخرى، مما جعله عهداً مضطرباً في غالب أحواله، لكنه وعلى الرغم من ذلك، كان حرص المسلمين فيه واضحاً على نشر دين الله، وتعليم العقيدة الصحيحة لأهل الأندلس، ودعوة الناس إليها بمختلف الطرق، وإن كانت الاضطرابات السياسية قد ألقت بظلالها على الحالة العقدية، إلا أنها لم تؤخر نشر الإسلام والدعوة إليه.

ويمكن تلخيص حالة عهد الولاة كما جاء في كتاب: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس: "وتصدى القادة المسلمون الوافدون على الأندلس منذ اليوم الأول لحلولهم في تلك الديار للمهمة الأكبر والأعظم، والتي كانت السبب الأول لوجودهم في تلك الأصقاع النائية عن ديارهم الأصلية، وهي: العمل على نشر دين الإسلام بين السكان الإسبان، إلا أن ذلك كان لا بد أن يجري بالتبشير والإقناع والترغيب باعتبارهم من أهل الذمة. ذلك

(١) تاريخ الدولة الأموية في الأندلس (التاريخ السياسي)، د. عبدالمجيد نعنعي، دار النهضة العربية. بيروت، ط١ ١٩٨٦م ، ص٧٠ ومابعدها (بتصرف) .

أن الشريعة الإسلامية أعطت أهل الكتاب عامة ضمانات واسعة لاحترام دينهم ومعتقداتهم ومقدساتهم وأموالهم وأشخاصهم. وعلى هذا أبقى حكام عصر الولاة لنصارى الأندلس، وكذلك ليهودها؛ وهم عامة السكان في شبه الجزيرة الإيبيرية حرية كاملة في دينهم وأحوالهم الشخصية وعلاقتهم بكهنتهم وبكنيستهم ما داموا يدينون بالطاعة والولاء للدولة ويدفعون ما تفرضه عليهم القوانين من ضرائب.

واحترام المسلمين الكبير لعقائد النصارى عموماً جعلهم ينجحون وبسرعة كبيرة في القضاء على ما كان قائماً قبلهم من خلافات بين الفرق النصرانية، وما كان يتعرض له من كانوا ما يزالون على ولائهم لبعض العقائد الخارجة على الكنيسة الكاثوليكية، وخاصة الأريوسيين، وكذلك أفاد يهود الأندلس من أهل الذمة من سياسة الحكام المسلمين المتسامحة في مجال الدين والعقيدة، فارتاحوا مما تعرضوا له في أواخر القرن السابع للميلاد من عنت وظلم وتشريد على يد القوط الغربيين. وربما لهذا السبب والى اليهود الحكام المسلمين، وأخلصوا في خدمتهم والتعاون معهم فأفاء عليهم هؤلاء بالمنافع والامتيازات، وعهدوا لهم بمناصب رفيعة ومهمات إدارية ومالية وديبلوماسية.

والواقع أن هذا الموقف الذي اتخذه الولاة المسلمون الأوائل، ما منع إطلاقاً الدعاة والمبشرين من القيام بدورهم، بل ربما ساعدهم في حالات كثيرة. فالإسبان أقبلوا منذ سنوات الفتح الأولى، ودون أن تحكمهم عقدة الخوف والتهويل، على تقبل عقيدة الإسلام والتحول إليه، بعضهم عن إيمان وقناعة، وربما بالنسبة لآخرين عن رغبة في التقرب من السادة الحاكمين. وأيضاً أسلم كثيرون بسبب التزاوج والاحتكاك بمن صاروا ينزلون بين الإسبان من المسلمين العرب والبربر، وكانت الطبقات الفقيرة والمستضعفة من العمال والمزارعين وخاصة من فئة أقنان الأرض، الأكثر إقبالاً على اعتناق الدين الجديد والأشد حماسة لرفع كلمته، إذ كان الإسلام يفتح أمامهم الطريق واسعاً للتخلص من تسلط أسيادهم كبار ملاكي الأرض. وما تخلفت فئات كثيرة من تجار المدن و بورجوازيتها عن اعتناق دين الفاتحين الجدد ولو بنسبة أقل ولاعتبارات مختلفة.

والواقع أن هذا الموقف المعتدل الذي اتخذه الولاة في القرن الثامن أوجد تعايشاً واقعياً بين جميع الأديان في بلاد كانت تشكو الخلافات الدينية، وتدخل السلطة في شؤون مواطنيها العقائدية بصورة مستمرة وبوسائل شرسة وظالمة في أكثر الأحيان.

ومن هنا، ومع تعايش الكاهن والفقيه والكنيسة والمسجد في البلدة الواحدة والحي الواحد اطمأن الإسبان، بعد خوف وحذر رافقا الفتح والغزو، على عقائدهم ومقدساتهم وهذا مما ساعدهم إلى حد كبير على تقبل وطأة الحكم الجديد، وعلى تحمل النازلين الجدد من مسلمين بينهم وفي أراضيهم وبلداتهم، ومما يجدر ذكره هنا أن المسلمين انطلاقاً من سياستهم هذه، تركوا للنصارى نظمهم الكهنوتية، وقوانينهم الكنسية القديمة، وأيضاً تركوا لهم أسقفياتهم ومحاكمهم الروحية، يتقاضون أمامها وفق شرائعهم وتقاليدهم في أمور حياتهم الشخصية، طالما كان ذلك لا يتعارض مع سياسة الفاتحين الأول"[1].

(١) المرجع السابق، ص ٩١ وما بعدها (بتصرف يسير).

وختاماً:

قدم المسلمون الأوائل كل ما يستطيعون من أجل نشر هذا الدين العظيم، وقد رأينا كيف أنهم قطعوا كل هذه المسافات، لإيصال رسالة الله إلى تلك الديار البعيدة.

إن كل هذه التضحيات، وكل الدماء التي أريقت في سبيل نصرة الدين، ونشر الحق، كانت وقود العزم لرجال هذه الأمة، لم تثنهم الجراح، ولم تقعد بهم هممهم عن المضي قدماً في طريق الحق والعدل، لإعلاء كلمة التوحيد، وإخراج الناس من الضلال إلى الهدى، ومن الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، فكانت نعم الرسالة، ونعم المقصد، رحمهم الله، وكتب أجرهم.

والله الموفق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد